الخراب المستعجل

كنت حريصة في أول أربع سنوات من عمر «آدم» على توسيع دائرة معارفنا. كنت أريد أن أوفر له بيئة اجتماعية متنوعة وثرية، فكنت أعلن عن رحلاتنا على حسابي الشخصي على الفيسبوك، وأرحب بأي مجموعة تنضم إلينا. كنت أخرج مع أي شخص وأقابل من يريد أن نتقابل، وكنت أقدم لـ«آدم» مثالًا حيًّا في القدرة على التعرف على الآخر وتكوين الصداقات والاستمتاع في صحبة مجموعة. بمجرد أن تأكدت أن بذرة «العلاقات الاجتماعية» قد غرست بنجاح، عدت لأصلي – شخصية تفضل صحبة نفسها على صحبة مزعجة أو غير صحية.

في تلك الفترة، عندما كنا نخرج مع كل من هب ودب، رأيت أطفالًا مدمرة! لماذا يمسك طفل بالنجيلة وينتزعها انتزاعًا بلا أي هدف أو سبب؟ لماذا يقذف طفل كلبًا بطوبة بدون أدنى داعٍ؟ لماذا يرى طفل زهرة جميلة، فيقطفها ويفرط بتلاتها ويرميها أرضًا ثم يدوس عليها؟ لماذا يرى طفل خنفسة تسير في أمان الله فيدهسها بقدمه ثم ينط فوقها؟ لماذا يقرر طفل أن يحفر الحائط بأداة ما؟ لماذا يخلع جزءًا من السور؟ لماذا يخرب منضدة أو كرسي؟

السؤال الأصعب كان: أين الأهل؟ لماذا يتركون هذه الكائنات المخربة هكذا؟

كان «آدم» طفلًا جميلًا! كنت أراقب عينيه تنظر إلى شيءٍ ما، كنت أرى نظرة التركيز التي عشقتها منذ ميلاده، كان يمد يده في حرص وحذر تجاه ما أثار انتباهه، كنت أتدخل في لحظتها وأعلمه كيف يستكشفه. في يومٍ مشمس، كنا في النادي. كان «آدم» وقتها عمره سنتان. رأى خنفسة سوداء تسير على الرمال وجذبت انتباهه. لاحظت تلك النظرة على وجهه، فاقتربت وقلت له إنها خنفسة، ثم مددت أصابعي تجاهها وأمسكت بها برفق، ورفعتها أمامه ليرى تفاصيلها البديعة. أشرت إلى رأسها وصدرها وبطنها، ثم قمت بعد أرجلها. مد يده. وضعت الخنفسة على الكف الصغير وقلت له أن يمسكها برفق لأنها تريد أن تعود لأطفالها.

ظل «آدم» يلعب مع الخنفسة حتى انتهى من استكشافه لها، ثم تركها حية ترزق لتعود إلى حياتها. هكذا تعلم «آدم» كل ما يخص التعامل مع النجيلة والأشجار والزهور والحيوانات والطيور وأي كائن حي. هكذا تعلم الرفق وعدم التخريب. لهذا كان ينهار صارخًا في فسحنا مع الآخرين ممن لديهم أطفال مخربون. كم مرة سمعت أن ابني ليس طبيعيًّا أو أن به شيئًا ما أو أنه بالقطع يعاني من سمات التوحد! أما أنا، فكنت أشعر بالبغض والاستياء تجاه هؤلاء الأهل الذين يتركون أطفالهم لغرائزهم الحيوانية بدون أي توجيه أو تهذيب. كنت أنظر للأطفال، فلا أرى سوى مستقبل أسود!

ثم جاءت د. «ماريا مونتيسوري» لتضع النقاط فوق الحروف. عندما ترى طفلًا يقطف الزهور ثم يلقيها أرضًا ويمضي في طريقه، أو عندما ترى طفلًا يتسابق مع طفلٍ آخر ليقتل حشرة ما تسير أمامهم، أو عندما ترى طفلًا يكسر جزءًا من حائط أو سور أو كرسي أو منضدة، علينا أن نعلم أن هؤلاء الأطفال لم يولدوا وبداخلهم نزعة للقتل أو التدمير أو الخراب!

لماذا إذًا «يخرب» الطفل؟

الطفل «يخرب» في بادئ الأمر من قبيل الاستكشاف، وفي هذه المرحلة واجبكم كبالغين يقومون على رعاية هذا الطفل، أن تعلموه كيف يستكشف حقيقة ما بيده دون أن «يخربه».

مثلًا، رأيتم طفلًا عمره سنة، يقطف وردة، بدلًا من نهره أو تركه، عليكم بتشجيعه بأن تقولوا له: «الله! هذه وردة! ما أجملها! اقترب منها! انظر إلى لونها! لونها أبيض!» ثم اقتربوا أنتم من الوردة واستنشقوا رحيقها والمسوا برفق أوراقها والمسوا شوكها واسحبوا يدكم سريعًا في ألم. أطفالكم يراقبونكم! في المرة القادمة لن يقطفوا الورود وسوف يقفون ليستكشفوها ويتعلموا خواصها!

تقول د. «ماريا مونتيسوري» إنه بدون التركيز لن يتعلم الطفل كيف يستكشف الأشياء من حوله بدون تدميرها! لذلك عليكم أن تساعدوا أطفالكم على تنمية هذه المقدرة من خلال تكرار تدريبات التأمل؛ تأملوا معًا سربًا من النمل ينقل طعامه إلى جحره أو فراشة تطير فوق الزهور أو نحلة تمتص الرحيق. واشرحوا للأطفال ما ترون وماذا يحدث ولماذا يحدث. هكذا يدرك الطفل أن الزهور والحشرات كائنات حية لها روح ومنزل وحياة لا يجب أن يدمرها!

أما بالنسبة للأجهزة، إذا لم يفهم الطفل فيما يُستخدم جهاز ما، سوف يدمره في محاولة استكشافه! إذا أثار جهاز اللاب توب، مثلًا، فضول الطفل، وبدأ في اللعب على أزراره! لا تصرخوا فيه أو تمنعوه لأن فضوله أقوى من تعليماتكم أو تهديداتكم. ادعوه للجلوس أمام الشاشة وافتحوا صفحة جديدة، واضغطوا على الأزرار معه، وشاهدوا فرحته بالحروف الجديدة على الصفحة البيضاء. افتحوا له فيديو تعليمي وشاهدوه معًا. افتحوا له تطبيق الرسم ودعوه يستكشف الألوان وحركة الماوس. هناك ألعاب تناسب الأطفال في أعمار مختلفة على النت يمكنكم استكشافها معًا. هكذا يشبع الطفل فضوله بطريقة صحية، وهكذا يتعلم الطريقة الصحيحة لاستخدام الأشياء. نفس الشيء ينطبق على الريموت والشاحن وأي أجهزة أخرى.

هناك عامل آخر يجب وضعها في الاعتبار عند التعامل مع نزعات الطفل التدميرية، ما هي الأسباب الخفية للتدمير؟

الغضب والألم والملل من أهم محركات النزعات التدميرية في الأطفال. هنا نعود للحديث عن البيئة المعادية للطفل، تلك البيئة التي يشعر الطفل فيها أنه غير مرغوب فيه وأنه لا مكان

له. بيئة ممنوع فيها عليه لمس أي شيء، ولا يستطيع فيها الحركة بحرية، ولا يجد ما يشغل به يديه وفضول عقله للمعرفة. بيئة لا يتعامل فيها الكبار مع الطفل باحترام أو حب أو صبر! قبل معاقبة الطفل على تدميره للأشياء اسألوا أنفسكم عن دوركم في ميلاد ونمو هذه النزعة.